

تقرير

عن حفائر البعثة النمساوية في منطقة
تل الضبعة شرق الدلتا موسم ٦٦/٦٧
عن عاصم الهكسوس
ترجمة: د. عبد المنعم أبو بكر

منذ العصور المبكرة من التاريخ المصري كانت الدلتا مسرحاً لأحداث كثيرة مختلفة ، إذ أنها كانت الصلة بين مصر والشرق الأوسط من ناحية ، وبين ليبيا من ناحية أخرى إذ كانت تصب منها طوق القوافل التجارية التي كانت تأتي إلى مصر من الشرق والغرب ، كما كانت الدلتا منطقة تطورت فيها مراكز كثيرة للعبادة نذكر منها على سبيل المثال ساجس ، وبوتو ، وأوزيرس ، ومندس وغير هذا . فمن المعروف أن الدلتا كانت مسرحاً لعدد من الغزوات تأتيها تارة من الغرب حيث حاولت القبائل الليبية أن تستقر فيها . وكانت تأتيها تارة أخرى قبائل أسيوية ، وفي نهاية الأمر كانت الدلتا مسرحاً لمعارك كثيرة حاول بها ملوك مصر العليا أن يحققوا وحدة سياسية وظهروا في التاريخ تحت اسم ملوك الأسرة الأولى الفرعونية وبدأوا عصراً جديداً هو العصر التاريخي لمصر ، ومن حقنا أن نعتقد أن كل هذه الأحداث لا بد أن تكون قد تركت آثاراً لها في هذه المنطقة وبالتالي نأمل أن يعثر العلماء على آثار مختلفة للدلتا لعلها تنير أمام العلم بعضاً من الظلمات التي لا تزال تخيم على حقبات كبيرة من التاريخ المصري .

لقد بقيت الدلتا فترة طويلة دون نشاط للدراسات العلمية نظراً لتهاافت البعثات على مناطق مصر العليا التي تكافى بسرعة العاملين فيها بآثار وتحف ثمينة ، ونحن نعتقد أنه قد حان الوقت لأن تستمر أعمال الحفر في هذه المنطقة المهمة خاصة وأن ظروفها سوف تجعل مستويات المياه الباطنية تنذب بين الصعود

الهيكسوس على حدود مصر فيهددونها بخطر دائم ، لذلك فقد تعقبهم بعد الحدود المصرية حيث التحم معهم في عدة مواقع من أهمها موقعه شاروون فحاصر احمس هذه المدينة وكان هذا أول حصار يضربه جيش من الجيوش على مدينة . وقد انتهى الحصار بتخليم مدينة شاروون على يد الجيش المصري بقيادة احمس (٤) .

وكما كانت هذه المعركة خاتمة حرب الاستقلال المصري من الغزاة فقد كانت بداية للسياسة الحربية في تاريخ مصر العسكري .

فمنذ ذلك الحين أخذ نجم مصر يتلألأ في أنحاء العالم المعروف كله لا سيما في بلاد الشرق القديم والفضل في ذلك لوجود جيش قوى مزود بأحدث المعدات في ذلك الوقت إذ أدخلت المركبات الحربية التي تجرها الخيول والتي أخذ المصريون نظامها عن الهكسوس ولكن المصري تفوق بعد ذلك في استخدامها ، فبد في ذلك اصحابها ، فأصبح الجيش المصري يحتوى على فرق من المركبات إلى جانب فرق المشاة والبحارة مما يدل على قابلية المصري منذ تلك العهود السحيقة للتأثر بالافكار والمبتكرات الحديثة لغيره من أبناء الدول الأخرى حتى وإن كانت من دول الأعداء ، وذلك هو أحد العوامل المساعدة على النجاح في بناء الدول .

وبهذه المناسبة نقول : لعل الجندي المصري القديم هو أول من نفخ في البوق في النداءات العسكرية وأول من دق على الطبل لتنظيم المتى في المناورات الحربية بغطاوات عسكرية واحدة بل لعل الجندي المصري هو أول من ابتدأ السير في الاستعراضات العسكرية بالقدم اليسرى أي كما هو متبع في الجيوش الحديثة ، وهذا الجيش العظيم كان يؤيده شعب متكاتف متجدد ولهذا السبب فضلت تسمية تلك الفترة التي بدأت بهذا النصر على يد احمس وبعض وحدة مصر الثالثة (٥) خلافاً للتسمية الأخرى المعروفة بعصر الدولة الحديثة .

فما أحوج مصر اليوم إلى أن تتمثل بالماضي الجيد وتستمد من وقائعها عبرة تستلهم منها ما يجدر بها من نصر .

(٤) ومما يؤسف له أن مقبرة احمس لم تكشف حتى الآن رغم أن مومياها وجدت في خبيثة الدير البحري حالياً بالمتحف المصري

وارجو تحقيق كشف مقبرة أول محرر أرض الكنانة من الغزاة الغاضبين في جبانة طيبة الغربية (منطقة ذراع أبو النجا)

(٥) اقرأ في هذا نظريتنا التي نقول بها . مخالفين سائر علماء التاريخ والآثار من تقسيم تاريخ مصر القديم حسب ما طرأ على مصر في عصورها السالفة من وحدة أو تفكك ، وهي النظرية التي سجلناها أول مرة في مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٤٢ ثم أوردناها في كتابنا «المحاث من الدراسات المصرية القديمة سنة ١٩٤٧» .



منطقة الحفائر بعد الكشف

وكيلومترين الى الشمال ، ومن المحتمل أن تكون الطبقات السفلى من هذا التل قد تمهدت واستوت سطوحها نتيجة لاستغلالها كأرض زراعية ومن أجل هذا نعتقد أن البحث فيها سوف يوانى ثمارا طيبة ومعلومات هامة . ويرجع تأسيس قرية في هذه المنطقة الى عصر الاسرة الثانية عشرة من التاريخ الفرعوني وذلك عندما دعت الحاجة الى شغل هذه المنطقة القريبة من الحدود المصرية القديمة بمجموعات من الناس لتحمل مصر من تسلل المهاجرين ومما يثبت ذلك ظهور بوابة قصر وجزء من معبد وبعض الاساسات لابنية عثر عليها منذ سنوات عديدة بعض رجال مصلحة الآثار .

ولقد بدأت البعثة النمساوية برئاسة الدكتور منفرد بتاك موسمها الاول في صيف عام ١٩٦٦ ، ثم بعد ذلك بدأت البعثة عملها مرة ثانية في نوفمبر سنة ١٩٦٧ وبذلك أتمت موسمين حتى الآن ويجدر بنا أن ننوه بالمساعدات الكثيرة التي تلقتها البعثة من سكان تل الضبعة الذين يتعاونهم هذا استطاعت البعثة أن تقوم بأعمالها في جو مليء بالصدقة .

والهبوط كما أن ظروف الحياة في مصر تحتم استغلال كل شبر من أرضها للزراعة .

ومما يسعدنا أن يكون الاتجاه الجديد في مصلحة الآثار في الجمهورية العربية المتحدة هو العمل على دفع بعض البعثات الى الاهتمام بمناطق الدلتا والبدا في تنفيذ مشروعات علمية أثرية فيها ، حدث هذا أيضا بالنسبة الى رجال مصلحة الآثار أنفسهم الذين بدأوا يقومون هم أيضا بحفائر واسعة هناك .

وهكذا فازت البعثة الاثرية النمساوية التابعة لجامعة فيينا (وهي البعثة التي قامت بحفائر واسعة مساهمة منها في مشروع انقاذ آثار النوبة وأتمت ستة مواسم هناك فيما بين عامي ١٩٦١ الى ١٩٦٦) وأختارت هذه البعثة منطقة تل الضبعة في شرق الدلتا للقيام بأعمال الحفر فيها .

يقع التل السالف الذكر على بعد خمسة كيلومترات الى الشمال من مدينة فاقوس وهو عبارة عن تل مستدير يبلغ قطره حوالي ٥٠٠ متر ومن المعتقد أن هذا التل هو جزء من أطلال مدينة واسعة لعلها كانت تمتد كيلومترا الى الغرب

وما كادت البعثة تبدأ نشاطها العلمي حتى استطاعت أن تثبت بأن التل كان ينمو في فترات متتابة على جزيرة من الرمال ابتداء من الدولة الوسطى (٢٠٠٠ الى ١٧٥٠ ق.م) حتى العصر الاغريقي الروماني .

ونتيجة لهذه الملاحظة سوف تكون الدراسات التي ستجرى في كل طبقة من طبقات التل على درجة كبيرة من الاهمية كما أنها ستزود المؤرخين بحقائق علمية هامة .

ولعل أهم ما ظهر خلال الموسمين الماضيين هو تلك الآثار التي عثر عليها في الطبقة التي عاصرت مانسميه بعصر الهكسوس (١٧٣٠ الى ١٥٧٠ ق.م) وهو عصر من عصور التاريخ لا تزال حقائقه غير واضحة بل لا يزال الجدل حوله محتدماً بين العلماء .

ونحن نعرف أن مصر في هذه الفترة وقعت فريسة لاحتلال قوة من المهاجرين الاسيويين لا نعرف حتى الآن على وجه التحديد الى أى جنس ينتمون ، وأن هذه الهجرة حدثت نتيجة لاضمحلال حدث في موطنهم الأصلي ، ونعرف أيضاً ان هؤلاء الحكام الاجانب المعروفين باسم الهكسوس أقاموا عاصمة لهم من شرق الدلتا شهرت باسم «أواريس» وأن سلطانهم على البلاد امتد جنوباً حتى أسسوط ، غير هذا فلا زلنا غير متأكدين من كنه هذا الاحتلال ولا نعرف الا القليل مما يحيط بهؤلاء الغزاة فمثلاً لا نعرف حتى الآن هل أتوا غازين محاربين أم أنهم تسلبوا بطريقة سلمية الى البلاد ، وفي نهاية الامر قامت في طيبة أسرة قوية وهي الاسرة السابعة عشرة وأخذت على عاتقها محاربة هؤلاء الاسيويين واستطاع كل من كاموزا ومن بعده أحموزا أن يخلصوا مصر منهم وأن يتعقبوهم محتلين المناطق الجنوبية من فلسطين في بيرشيه . ومما يذكر أن المخلفات الاثرية لهذا العصر قليلة قلة تثير الدهشة ، وأصبح من الواجب أن نعترف بأن الآثار القليلة التي ظهرت في تل الضبعة والتي نعتقد أنها ترجع الى هذا العهد سوف تمهد الطريق الى معلومات شيقة في هذا الصدد .

لقد ظهر من بعض ما تبقى من محلة سكنية ترجع الى عصر الدولة الوسطى (أى قبل عصر الهكسوس) أنها هدمت بعد حريق شب فيها

ويعلو طبقة هذه المحلة السكنية عدة طبقات تعود كلها الى عصر الهكسوس ، واتضح أثناء أعمال الحفر أن محتويات هذه الطبقات التي ترجع الى عصر الهكسوس لا تتصل بالحضارة المصرية بل تتصل بحضارة سوريا وفلسطين التي ترجع الى ما نسميه الى العصر البرونزي الاوسط ، وليس من شك أن هذا الكشف يعنى حقائق هامة بالنسبة للتاريخ المصرى وكذلك بالنسبة الى التاريخ الغامض لعصر الهكسوس .

لقد عثر رجال البعثة من هذه الفترة على منطقة معبد صغير تبلغ مساحته ١١ × ١٦ متراً مربعاً ، ويتكون من قاعة عليها مقصورة ذات (ثلاثة أقسام) وهذا المعبد شيد فوقه بضع مقابر ومن الملاحظ أن هناك عدة أنابيب من الفخار تصل بين هذه المقابر وبين الاجزاء الداخلية من المعبد المشيد فوقها ولا يمكن أن نفسر هذا الا أنهم أرادوا أن يشركوا الموت في القرايين والطقوس التي تحدث في المعبد .

عثر رجال البعثة على معبد ثان مجاور للمعبد السالف الذكر وأظهرت عمليات الكشف عدة مقابر تقع بين المعبد وبين السور المحيط به ، وكانت هذه المقابر ذات سقف مقبى وشيدت كلها من اللبن وحوت بعضها أكثر من أحد عشر دفنة زودت كلها بأثاث جنازى كبير وننوه هنا بكشفين على جانب كبير من الاهمية ، حدثا في مقبرتين متجاورتين ، اذ عثر رجال البعثة على هيكلين عظميين لحصانين الى الجنوب من كل من المقبرتين . وفي هذه الحالة لا يمكن تفسيرهما الا أنهما كانا يتعلقان بعربة يجرها حصانان كما انه من الملاحظ أن عديدا من الهياكل العظمية كانت مزودة بكمية من الأسلحة مثل الخناجر التي كانت موضوعة على مقربة من حصر الموتى ، وبلط حربية من البرونز وضعت على مقربة من الأيدي في حين عثر في تجويف البطن على بقايا أحزمة من البرونز السميك . غير هذا عثر على دبائيس للملابس وجدت بشكل عام على مقربة من الرقبة ثم عدد كبير من الجعارين وأوانى من الألبستر تستخدم في التجميل وأمشاط من العاج ، وفي نهاية الامر عثر على كميات من الاوانى الفخارية وضعت أمام وجوه الموتى ، وهذه الاوانى تمتاز ببريق معدنى وذلك بأضافة سائل من البرونز

النمساوية الآن بعض الشواهد التى تدعم هذا
الرأى .

ويبدو واضحا من الآثار التى كشف عليها فى
الطبقات العليا من التل التى تعاصر الفترة
الآخيرة من حكم الهكسوس والفترة الأولى من
الأسره الثامنة عشرة أن الحياة فى هذه المدينة
كانت أقل ثراء مما كانت عليه فى الفترة الأولى
من عصر الهكسوس ، اذ أن المنازل أصبحت
أصغر كما أنها تركت دون عناية كما أن هناك
أثارا كثيرة لحرائق تسببت فى هدم بعض أركانها
كما أن الآثار المكتشفة من هذه الطبقات وكذلك
ما عثر عليه داخل المقابر الموجودة تحت المنازل
تثبت أننا هنا نكشف النقاب عن مجموعة من
الآسيويين عاشوا فى المنطقة حتى أواخر الأسرة
السابعة عشرة وأوائل الأسرة الثامنة عشرة .

وكشفت البعثة فى الطبقات التى تعلو طبقات
عصر الهكسوس على آثار من عصر الرعامسة
١٣٠٠ الى ١١٠٠ قم ويتضح من هذه الكشف
بأنها خاصة بجدران يبلغ سمكها عشرة أمتار
وفى هذه الحالة فإنها كانت تكون جزءا من
عمارته ضخمة لا ندرى عنها شيئا خاصه وأنها
تتجه الى الشمال الجنوبى وتتجه من الشرق الى
الغرب ، وعلى كل حال يمكننا اعتمادا على ضخامة
الجدران أن نقول بأنها كانت تكون جزءا من
حضن ضخم شيد على مقربة من عاصمة الرعامسة
التي نشأت فى « قنطير » والتي تقع على بعد
أربعة كيلومترات الى الشمال من تل الضبعة ،
بل هناك من المظاهر ما يجعلنا نعتقد أن هذه
المدينة التى كشفنا عنها كانت تمتد فيما بين
« قنطير » فى الشمال وتل الضبعة فى الجنوب
ولعل هذه الملاحظة هى الأخرى تدعم النظرية التى
تقول ان أطلال « قنطير » هى ما تبقى من عاصمة
الرعامسة . ان أبحاث البعثة النمساوية فى تل
الضبعة يجب أن تستمر عدة سنوات ويجب أن
تدعم هذه الأبحاث حتى نستطيع فى نهاية الأمر
أن نجد الاجابات على كثير من الأسئلة التى
تحيط بطبيعة هذه المنطقة وبكل ما كان يمكن أن
نفسر بها كنهها ، واذا تمكنت البعثة أن تزيل
النقاب عن كل هذه العضلات فإن النتيجة سوف
تقدم معلومات تاريخية شتى وهى المعلومات التى
ينتظرها العلماء والتى ولا شك تنتظرها
الجمهورية العربية المتحدة .

يكسو أسطوحها عند حرقها ، ولا شك كانت
هذه الأواني مليئة بأنواع من القرابين تضمن
للموتى حياة سعيدة فى عالم الخلود .

ولعل من اهم الملاحظات التى يمكن أن نثبتها
الآن هى أن جثث الموتى وهذه المقابر لم تدفن
ممتدة كما كانت العادة السائدة فى مصر، ولكنها
دفنت فى وضع مقرفص ، وهذه العادة بالذات
كانت فى ذلك الوقت منتشرة فى كل من سوريا
وفلسطين ، ونزيد على هذه الملاحظة تلك التى
سبق أن نوهنا بها وهى عادة حفر المقابر
وبنائها تحت أرضية المنازل وذلك حتى يستطع
الميت البقاء بالقرب من أسرته والمشاركة فى مآكلهم
ومشربهم على أساس أن الأسرة كانت تصب
شيئا من السوائل على الأرضية التى تعلو المقابر
وفى نهاية الامر هناك عادة تبدوا غريبة كل
الغرابة على الحضارة المصرية ، وهى عادة دفن
الأطفال بعد حرقهم .

على أساس كل هذه المظاهر وأنواع الفخار
التي عثر عليها فى هذه المنطقة يمكن لنا أن
نؤكد بأنها المرة الأولى التى يمكن أن نسجل فيها
عادات آسيوية فى الوطن المصرى ، ويمكن لنا
أيضا أن نؤكد بأن هؤلاء القوم أصحاب العادات
السابقة هم الذين سمو الهكسوس واستقروا فى
هذه المنطقة .

ويمكن لنا أن نؤكد بأن المعبدین والأبنية
الممتدة التى عثرت البعثة عليها هناك تعتبر دليلا
على وجود شخصيات بارزة عاشت فى هذه المنطقة
فى ذلك الوقت ، وذلك أيضا يثبت من ذلك
الجران الذى عثر عليه فى واحدة من المقابر
الغنية التى شيدت تحت أرضية المعبد وهو جعران
نقشت عليه الالقاب الآتية (نائب مدير الخزانة ،
واسمه عام « أى الآسيوى ») واذا كان هذا
الجران لا يمكن أن يدل بوضوح على شخصية
صاحبه الا أن الاسم واللقب يتفقان مع دلالة
المخلفات البشرية التى عثر عليها فى هذه المنطقة
وأن هذه المحلة السكنية أو يكن تسميتها المدينة
التي لا تعرف حتى الآن مدى اتساعها تخفى لنا
بعض المعلومات الهامة التى حاول بعض الاثريين
قبل بدء حفائر البعثة النمساوية وهى ان
أواريس عاصمة الهكسوس كانت واقعة على
مقربة من تل الضبعة ولقد قدمت البعثة